لماذا تصرّ واشنطن على تدخل موسكو لصالح ترامب؟

■ حميدي العبدالله

وجهت إدارة الرئيس أوباما اتهامات لروسيا بأنها تدعم حملة ترامب، بل أكثر من ذلك اتهمت جهات في الحزب الديمقراطي، وفي حملة هيلاري كلينتون، موسكو بأنها تقف وراء تسريب معلومات عن بريد كلينتون والحزب الديمقراطي.

موسكو من جهتها نفت هذه الاتهامات وأكدت أنها لا تستند إلى أيّ أساس. وعلى الرغم من نفي موسكو للاتهامات إلا أنّ إدارة أوباما مصرّة عليها، فما هي الأسباب التي تدفعها لإطلاق هذه الاتهامات؟

قد يتبادر إلى الذهن أنّ السبب الرئيسي للاتهامات، هو التصريحات التي أدلى بها المرشح عن الحزب الجمهوري دونالد ترامب والتي أكد فيها، أنه إذا ما وصل إلى البيت الأبيض فإنه سوف يتعاون بقوة مع الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، وأنّ هذا التعاون سوف يشمل قضايا عديدة تتعلق بالعلاقات الثنائية، وبمحاربة «داعش»، وشكلت هذه التصريحات الأساس السياسي التي تنطلق منه اتهامات إدارة أوباما لموسكو بأنها تدعم ترامب، لأنّ كلينتون تدعو إلى تصعيد المواجهة ضدّ موسكو.

لكن من المعروف أنّ روسيا اليوم ليست روسيا الاشتراكية، التي يشكل نظامها السياسي نقيضاً للنظام الرأسمالي وتهديداً له، وبالتالي فإنّ الصراع بين روسيا والغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة، هو صراع وجود لن يتوقف إلا بسقوط أحد طرفيه، وهذا ما حدث فعلاً في مطلع عقد التسعينات حيث سقط الاتحاد السوفياتي وتفكك حلف وراسو.

اليوم تجمع روسيا والدول الغربية، بما فيها الولايات المتحدة، مصالح مشتركة تستوجب تعاوناً وتنظيم التنافس بينهما. وإذا كانت ثمة قضايا خلاف حول مستوى النفوذ في مناطق محدّدة، ولا سيما في منطقة الأوراسيا، فإنّ هذا الخلاف لن يصل في أيّ لحظة إلى مستوى ما كان عليه الصراع بين الغرب الرأسمالي والاتحاد السوفياتي ومنظومته الاشتراكية.

الأرجح أنّ الاتهامات التي وجهت إدارة أوباما إلى روسيا، هدفها التأثير على الحملة الانتخابية، بما يخلق واقعاً سياسياً ونفسياً في صفوف الأميركيين يساعد على التصويت لصالح المرشحة الديمقراطية كلينتون التي تلتزم برنامجاً يحافظ على مكانة الولايات المتحدة، ويرفض مشاركة أيّ دولة في العالم لها في هذه المكانة.

القناعة في البيت الأبيض والحزب الديمقراطي أنّ توجيه الخطاب ضدّ روسيا يضعف ترامب ويقوّي كلينتون ولذلك أصرّت على اتهام موسكو.

يبقى الانتظار حتى تقول صناديق الاقتراع كلمتها، وما إذا كان الرأي العام الأميركي لا يزال يؤمن بهذا الخطاب التقليدي للنخبة الحاكمة الأميركية أم لا.

القضية هي الإنسان

■ ريم شطيح

ما زالت المشكلة أنّ كل متناوليّ الديمقراطية في البلدان العربية يطرحونها بشكلها السياسي فقط وبما يرتبط هذا الشكل مع كينونة نظام الحكم والسلطة الدينية وليس بشكلها الفلسفي الإنساني المُرتبط بوجود الإنسان وقيمته.

فلمَ يبقَ من الأحزاب في تلك الأرض مَن يَحمل رسالة إنسانية حقيقية؛ حتى المُتكلّمين باسم العلمانية والليبرالية اليوم تَفوحُ منهم رائحة الطائفية وقد سُيِّسَت أهدافهم وأقوالهم باتّجاه المصلحة الخاصة وخدمة أشخاص وأجنّدات داخلية وخارجية وليس مصلحة الوطن!

يَلزمنا الكثير من الوقت والطاقة الفكرية والبشرية لإزالة وغسل تلك العقول التي لا ترى في الوطن إلاّ حزباً سياسياً أو مشروعاً دينياً أو مُلكاً عائلياً خاصاً! ولا أعرف كم سيلزمنا بعد من الوقت والمعارك والدماء كي تفهم شعوب هذه الأمة أنّ الأحقاد لن تصنع وطناً، وأنّ عليها اللحاق بركب الأمم والمجتمعات المتطوّرة، وبأنّ السياسة والقانون وُجدا لبناء المجتمعات والدين لخدمة الإنسان وليس العكس.

أتتساءل، وبعد متابعة طويلة وقراءات عديدة وتحليلات وغيرها؛ تُرى ما هي القضية؟ وأخشى أن تكون القضية أنه لا يوجد قضية!

أمّا قضية مَن يعملون من أجل التنوير من كُتّاب ومُثقّفين حقيقيين؛ ومن أحزاب حقيقية، فقضيّتهم هي الإنسان. ولا بُدَّ لمجتمعاتنا إنْ أرادتْ التقدم والتغيير أن تضع الإنسان القضية الأهم لأن هذا هو معيار التقدُّم.

***

تطوير الخطاب الديني أولاً

– يقول لي: أنتم الكُتّاب والمثقفون لماذا تطالبون رجال الدين بالتطوير وتعديل الخطاب الديني بينما الكثير من المثقفين العرب أيضاً بحاجة إلى تطوير، وهو دوركم دور النخبة بتثقيف الشارع فالشعب أجدَر بالتوعية.

قلتُ له: التطوير مطلوب من كلّ الفئات بدءاً من المناهج الدراسية وصولاً لممارسة العمل الأدبي والثقافي. ولكن لننظر إلى الموضوع من ناحية التأثير الشعبي؛ فرجال الدين لديهم تأثير على الشعب والشارع يفوق مفعوله – خاصةً السريع – تأثير المثقفين، والسبب عدم التهيؤ لهذا التأثير من الأسرة إلى مناهج الدراسة... حتى تلك الحالة، وهيمنة الدين على كافة مناحي الحياة والعقول. خطاب رجل الدين يؤثّر على الكثير من أصحاب التفكير السطحي أو المغلق (والذين لا يقرأون أصلاً للمثقفين)؛ في الوقت الذي تُكَمّ أفواه الكثير من المثقفين والكُتّاب والمُبدعين الحقيقيين من قبَل السلطات السياسية منها والدينية ويتمّ تغييبهم عن دورهم الحقيقي في توعية الشعب ورفع المستوى الثقافي للمجتمع، وكانت السجون العربية تعجّ بالمعتقَلين المثقفين، حتى أصبح هناك مثقفون للسُّلطة بين الإغواء والإلغاء، ومثقفون يكرزون بالطائفية أكثر من رجال الدين أنفسهم، وهؤلاء ببساطة ليسوا بمثقفين حقيقيين. العملية مُتداخلة من عدة عوامل ونواح ومن الضروري البدء من إحدى النواحي لَلتعديل والتطوير بهدف أن يشمل هذا التعديل جميع النواحي.

لا كرّ ولا فرّ في حلب

- إعتاد متابعو الحرب السورية على تناوب أطرافها في استخدام مصطلح أنّ الحرب كرّ وفرّ، في إشارة إلى أنّ ما يسيطر عليه خصومهم ليس نهائياً وستأتي أيام يتمّ استردادها، وكانت الحرب فعلاً كذلك، فقد تناوب الطرفان على السيطرة على مواقع حساسة وعلى استردادها.

- هذه المرة تقول جماعات تحمل عنوان المعارضة إنّ حرب حلب الحاسمة في مستقبل سورية ينطبق عليها مبدأ أنّ الحرب كرّ وفرّ.

- هذه المرة لم يعد في الحرب في سورية كرّ وفرّ، بل ثمة طرف يملك قدرة الكرّ وطرف ليس له إلا طريق الفرّ.

- كان الكرّ والفرّ يوم توازنت قدرات الأطراف بين ما تملكه سورية وما يحشد بالتتابع لقتالها وإسقاطها.

- كان الكرّ والفرّ تعبير عن قرار سورية عدم استنفاد قدراتها المرصودة لبدء الهجوم الحاسم قبل حلول توقيت هذا الهجوم.

- التوقيت يرتبط بنهاية المهلة الأميركية لإسقاط سورية حتى عشية الإنسحاب من أفغانستان.

- منذ بدأ الهجوم السوري في حلب كانت نهاية الكرّ والفرّ وكان الخروج التركي من الحرب وتركيا أمّ الحرب السورية.

التعليق السياسي

العلاقات السعودية ـ «الإسرائيلية» من تحت الطاولة الى التحالف الاستراتيجي

1

عشقي والوفد السعودي مع أعضاء في الكنيست الصهيوني

■ رضا حرب*

على قاعدة تقاطع المصالح الاستراتيجية على مستوى المنطقة وفي كافة الملفات تتقدّم العلاقات السعودية «الإسرائيلية» بسرعة كبيرة باتجاه إقامة تحالف استراتيجي صهيو – وهابي.

التطوّر الملحوظ يدفعنا الى التساؤل: ماذا يخطط الطرفان في السرّ والعلن، وما هي الأهداف المشتركة التي يسعى الطرفان الى تحقيقها من وراء الذهاب الى التحالف الاستراتيجي؟ والسؤال الأهمّ، هل المشروع الصهيو – وهابي قابل للنجاح؟

في هذا الجزء من البحث القصير، ينبغي في البداية الوقوف عند حقيقة لأهميتها التاريخية والجغرافية وارتباطها بما يجري في المنطقة اليوم.

من المعروف انّ مؤسس الصهيونية «ثيودور هيرتزل» قال «إنّ حدود إسرائيل الكبرى تمتد من النيل الى الفرات»، لكن قليلين يعرفون تفاصيل «خطة عوديد ييينون Oded Yinon Plan» كخطة استراتيجية لـ«إسرائيل» التي نشرها باللغة العبرية في شهر شباط/فبراير 1982 وترجمها الى الانكليزية الكاتب والاستاذ الجامعي الراحل «إسرائيل شاحاك»، صاحب الكتاب الشهير «أسرار مكشوفة».

من الواضح انّ «عوديد ييينون» كان صاحب رؤية وعنده بُعد نظر. ومن الواضح ايضاً، انه استند في خطته إلى ثلاثة عوامل رئيسية: استبداد الأنظمة وانعدام العدالة الاجتماعية والظلم الذي تعاني منه الأقليات الدينية والعرقية.

تقوم خطة عوديد ييينون على إثارة حروب مذهبية وعرقية تؤدّي الى تشظي المحيط الجغرافي للكيان الصهيوني. مصر التي وصفها بالجثة الهامدة لا تشكل خطراً حقيقياً على الجبهة الغربية لـ«إسرائيل»، إلا أنّ تفتيتها الى مجموعة كيانات (دولة قبطية وعدة دويلات ضعيفة واستعادة احتلال شبه جزيرة سيناء) يجعل دول شمال أفريقيا والسودان مرشحين طبيعيين للتقسيم. وبما انّ الجبهة الشرقية تشكل الخطر الحقيقي على أمن «إسرائيل»، يجب ان تكون أولوية «إسرائيل» تقسيم لبنان الى خمسة أقاليم لتكون بمثابة نموذج للعالم العربي، وتقسيم سورية الى أربع دول (دولة علوية على الساحل ودولة سنية في منطقة حلب ودولة سنية أخرى في دمشق تكون معادية لدولة حلب وكيان للدروز في منطقة حوران وشمال الأردن وربما في «جولاننا» وفقاً للتسمية التي أطلقها عوديد ييينون على الجولان المحتلّ) وتقسيم العراق الى ثلاثة كيانات عرقية ومذهبية – دولة كردية في الشمال ودولة للسنة ودولة للشيعة. تقسيم المحيط الجغرافي لـ«إسرائيل» الى كيانات طائفية وعرقية صغيرة وضعيفة وكيانات وكيلة تضمن أمن «إسرائيل» وتؤكد تفوّقها. كان عوديد ييينون يدرك انّ تغييرات جيوبوليتيكية حادة لا تمرّ إلا بحروب داخلية، لكن من المؤكد لم يخطر بباله إمكانية حصول هذا التجمّع الهائل للحالات التكفيرية بتحريض وتمويل عربي شرّعته فتاوى الفاشية الاسلاموية (الوهابية). اقتراح جنرال «التطبيع» السعودي أنور عشقي بتقسيم العراق الى ثلاثة كيانات طائفية وعرقية، يندرج في إطار التحضير لبلقنة المنطقة بأكملها بدءاً من العراق وسورية وليس لبنان كما في خطة «ييينون».

بعد فشل صدام حسين في عدوانه الظالم إسقاط النظام الاسلامي في إيران، وبسبب الإنجازات الهائلة للجمهورية الإسلامية على كافة المستويات العسكرية والعلمية، رغم الحصار والمقاطعة واغتيال العلماء ودعمها اللامحدود للمقاومة، صار تدمير الجمهورية الإسلامية أولوية «إسرائيلية»، كما هي أولوية سعودية كما قال الأمير المُلقب بالصهيو ـ سعودي تركي الفيصل خلال مشاركته في مؤتمر تنظيم «مجاهدي خلق» الإرهابي المعروف بعلاقاته الوطيدة بـ«الموساد الإسرائيلي».

رغم محاولات إيران مدّ يد الأخوة الاسلامية والجيرة إلى كلّ دول المنطقة بلا استثناء على قاعدة «العدو الوحيد هو العدو الصهيوني»، إلا انّ تلك المحاولات اصطدمت بجدار حديدي من العداء والعدوانية وتغذية الصراعات المذهبية لجرّ إيران الى نزاعات لا تخدم سوى «إسرائيل». في المقابل، وظفت السعودية كلّ الإعلام الحاقد والفاجر، ووظفت رجال دين لا يردعهم وازع أخلاقي أو ديني أو إنساني لإصدار فتاوى الذبح وقطع الرؤوس وانتهاك المقدسات الإسلامية والمسيحية. فضلاً عن ذلك، سبق وان ساهمت بسخاء في تمويل حرب صدام حسين على الجمهورية الإسلامية، وطلبت من الاميركيين ضرب إيران لإسقاط النظام الإسلامي، وبلغت «الإسرائيليين» بفتح مطاراتها وأجوائها أمام الطائرات «الإسرائيلية» لضرب إيران، وتفوّقت على «إسرائيل» في معارضتها الاتفاق النووي، وشجّعت «الإسرائيليين» على شنّ حرب تموز ضدّ لبنان، وحرّضتهم على الاستمرار في الحرب حتى القضاء على حزب الله، ولا يجوز استبعاد التمويل كما تؤكد مصادر أميركية وأوروبية. الاجتياح الإرهابي للعراق بتمويل سعودي، والحرب على سورية بتمويل سعودي، والعدوان الظالم على اليمن بقيادة سعودية، كلها في سياق استخدام الدين وقوداً للحروب الداخلية لإنجاح «خطة عوديد ييينون».

فعندما يتبادل السعوديون و«الإسرائيليون» رسائل الودّ والإعجاب، ويطلقون العنان لتصريحاتهم حول المصالح المشتركة، ينبغي ان ندرك بأنّ التفاهم على الأمور الاستراتيجية بين راعية الإرهاب التكفيري ودولة الإرهاب قد دخل مرحلة متقدّمة، لا سيما تحديد العدو المشترك – محور المقاومة وعلى رأسه إيران، كما أكد انور عشقي نيابة عن حكام المملكة «انّ ايران عدو مشترك للمملكة وإسرائيل».

اليوم، بعد سنوات من المفاوضات السرية، «إسرائيل» من خلف الستار تقود «محور الاعتدال العربي» (محور الشرّ) في الحرب على العدو المشترك (محور المقاومة) من طهران الى الضاحية الجنوبية.

* المركز الدولي للدراسات الأمنية والجيوسياسية
www.cgsgs.com

مَنْ يوقف الغزو «الإسرائيلي» لدول الخليج

■ جاك خزمو*

في كانون الأول من عام 1994 توجه رئيس وزراء «إسرائيل»، اسحاق رابين، في ذلك الوقت نحو عاصمة البحرين المنامة حيث التقى أميرها. وهذه الرحلة كانت بداية الغزو «الإسرائيلي» لدول الخليج، اذ انّ رابين استغلّ واستثمر التوصل الى «اتفاقي سلام» مع منظمة التحرير والأردن ليبدأ هذا الغزو، وليشجع دول الخليج على إقامة علاقات دبلوماسية مع «إسرائيل». ولكن الرئيس الخالد حافظ الأسد اتصل بالرئيس المصري حسني مبارك والعاهل السعودي الملك فهد من أجل عقد قمة ثلاثية في الاسكندرية. وعُقدت بالفعل هذه القمة في مدينة الاسكندرية بعد ثلاثة أيام من زيارة رابين إلى المنامة. وأهمّ ما اتفق عليه في هذه القمة وقف التطبيع مع «إسرائيل»، وعدم اللهاث وراء «إسرائيل»، إضافة بالطبع إلى قرارات أخرى...

بعد 22 عاماً يطفو الغزو «الإسرائيلي» لدول الخليج على السطح من خلال الاعلان، ومن دون أيّ خجل، عن زيارة قام بها مسؤول سعودي سابق، هو اللواء المتقاعد أنور عشقي على رأس وفد رسمي الى مناطق الضفة والقدس، وعقد لقاءات مع مسؤولين «إسرائيليين». أيّ أنّ العلاقات الخليجية ـ «الإسرائيلية» التي كانت سرية الى حدّ ما أصبحت علنية، وخاصة من قبل أكبر دولة في الخليج هي السعودية، التي تحتضن أهمّ المقدسات الاسلامية في العالم، وتعتبر الدولة الأهمّ في منظمة التعاون الاسلامي.

يعرف الجميع انّ لقطر مندوباً في «إسرائيل»، وكذلك هناك عدة دول عربية خليجية تقيم علاقات اقتصادية مع «إسرائيل». ويعرف كثيرون انّ مسؤولين «إسرائيليين» كباراً يقومون بزيارات رسمية سرية الى بعض عواصم دول الخليج للتنسيق مع مسؤوليها حول مواضيع شتى. ومعلوم أيضاً أنّ «إسرائيل» هي التي شجعت السعودية على القيام بعدوانها على اليمن، وتحرّض قادة الخليج ضدّ إيران باتهام الأخيرة بالتدخل في شؤونها الداخلية، مع انّ السعودية ودول خليجية أخرى تتدخل في دول عديدة، وهي مسؤولة عن تدهور الوضع في العالم العربي نتيجة دعمها للإرهاب، واحتضانها للتنظيمات الإرهابية من خلال توفير الدعم المالي والسلاحي لها.

زيارة أنور عشقي لم تكن الأولى، ولن تكون الأخيرة، بل هي بداية «إشهار» هذه العلاقة على الملأ... فقد كنا نعرف عن لقاءات سرية بين قادة سعوديين و«إسرائيليين» في جنوب فلسطين المحتلة، وكان الهدف منها هو تشكيل جبهة موحدة ضد إيران إضافة الى تعزيز العلاقات الاقتصادية من دون التعرّض لها إعلامياً... وهناك هدف آخر لهذا التحالف السعودي ـ «الإسرائيلي»، وهو ضرب حزب الله لأنه جزء من محور الممانعة الذي هو محور نكد وشرّ بالنسبة إليهم.

ويأتي الكشف عن هذه الاتصالات بعد ان ضعف العالم العربي وبدأ الحديث مجدّداً عن إحياء المبادرة العربية، إذ انّ «إسرائيل» أعربت عن استعدادها لقبول المبادرة اذا تمّ التعديل عليها.

نستطيع القول انّ «إسرائيل» بدأت بالفعل غزو دول الخليج من خلال مشاريع ومواقف، حتى انّ عضو كنيست اريال مرغليت التقى برؤساء وممثلي شركات عربية عديدة في جنيف. وهناك مناورات «إسرائيلية» ـ أميركية مشتركة بمشاركة دول من منظمة التعاون الاسلامي.

نقول غرو دول الخليج، وليس إقامة علاقات معها، لأنّ «إسرائيل» تريد أن تؤثر على هذه الدول وتسيّرها كما تشاء، وليس مستبعداً ان تحرفها عن بوصلتها الأساسية ليصبح انتماؤها غير عربي.

في العام 1994 كان الرئيس حافظ الأسد حاضراً، وأوقف هذا الغزو واللهات وراء التطبيع... ولكن هل هناك اليوم من يستطيع ان يوقف هذا الغزو؟

الاعتماد هو فقط على الشعوب، فهي قادرة على فعل أيّ شيء جادّ إذا أرادت ذلك؟ فهل هناك إرادة صادقة لوقف هذا الزحف نحو التطبيع؟ ام انّ الاستسلام لهذا الغزو هو الأقوى في المرحلة الحالية؟

لا استسلام لهذا الغزو، ولا بدّ أن تتحرك سواعد أبناء الخليج لوقف هذا الغزو «الإسرائيلي» الخطير عليهم وعلى العالم العربي بأسره!

* ناشر ورئيس تحرير
مجلة «البيادر» ـ القدس المحتلة

الإعلام والأجندات السياسية

كلينتون وأوباما في مؤتمر الحزب الديمقراطي الأميركي

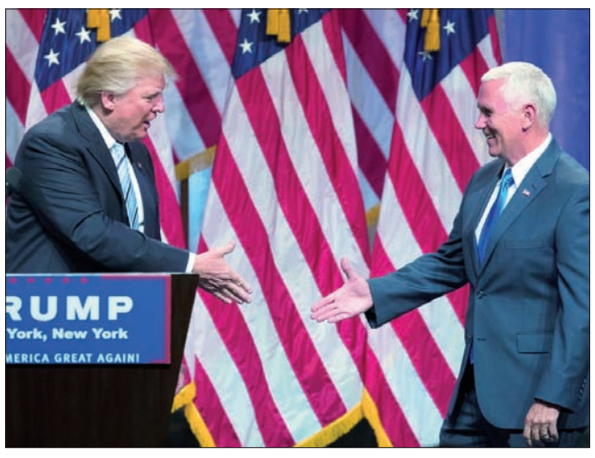

ترامب ونائبه مايك بنس في مؤتمر الحزب الجمهوري

أردوغان متحدثاً عبر الهاتف ليلة الانقلاب الفاشل

■ صبحي غندور*

هناك مزيج يفعل فعله الآن، ليس فقط في صناعة الرأي العام، بل أيضاً في صناعة الأحداث نفسها. وهذا المزيج يقوم على الدور الخطير الذي تلعبه الشبكة المعلوماتية وملحقات الهواتف النقالة في تحويل وسائل «الإعلام» إلى وسائل «تحريض» أو «تغيير» أو ربما أحياناً وسائل «فتنة»، فالأمر يتوقف على الأجندة السياسية لمن يملكون وسائل الإعلام وأيضاً على ما يتوفر لها من معلومات ومن «تسريبات معلوماتية».

فتركيا شهدت مؤخراً محاولة انقلابية عسكرية جرى إحباطها نتيجة تمكّن الرئيس رجب أردوغان من استخدام هاتفه النقال لإجراء مقابلة تلفزيونية دعا فيها مناصريه للخروج إلى الشوارع لتأييده ضدّ الانقلابيين، ونجح في ذلك. أيضاً، شهدت الولايات المتحدة مؤخراً تظاهرات شعبية في عدة مدن أميركية ضدّ ممارسات بعض عناصر الشرطة بحق الأميركيين الأفارقة، وهذه الممارسات ما كانت لتعرف لولا استخدام الهواتف النقالة وشبكات التواصل الاجتماعي لتصويرها ومن ثمّ نشرها عبر وسائل الإعلام الكبرى في الولايات المتحدة.

أيضاً، فإنّ استطلاعات الرأي العام الأميركي أظهرت تفوّق دونالد ترامب على هيلاري كلينتون بعد انتهاء مؤتمر الحزب الجمهوري ثمّ حدثت حالة معاكسة بعد انتهاء مؤتمر الحزب الديمقراطي حيث تُظهر الاستطلاعات تفوّق كلينتون على ترامب الآن. وطبعاً حدث ذلك كلّه بسبب التغطية الإعلامية لكلّ من المؤتمرين على مدار أربعة أيام متتالية. فالإعلام الذي يصنع الرأي العام يصنع المرشحين أيضاً ويساهم إلى حدّ كبير في «انتخاب» الرئيس الأميركي.

إنّ الإعلام، في أيّ مكان أو زمان، هو وسيلة لخدمة سياسة أو ثقافة أو مصالح معيّنة. وهذا ما انطبق أيضاً على مرحلة نشوء الإعلام العربي في مطلع القرن الماضي حيث كان الإعلام «العربي» انعكاساً لصراعات السياسات والمصالح والمفاهيم التي سادت في ذاك الزمن. ولذلك وجدنا أنّ الدول الغربية الفاعلة آنذاك – خاصّةً بريطانيا وفرنسا – حرصت على موازاة تأسيس الكيانات العربية الراهنة، واحتلال بعضها، بتكوين مؤسسات إعلامية، تخدم الطروحات الثقافية الغربية وتعزّز أعمدة التقسيم الجغرافي الجديد للمنطقة. ومن أجل ذلك كانت الحاجة الغربية لمنابر إعلامية، ولأدباء وكتّاب لا ينتمون فكرياً وثقافياً إلى المدافعين عن «الهويّة العربية». فالغرب أدرك أنّ تجزئة المنطقة العربية، عقب الحرب العالمية الأولى، تتطلب محاربة أيّ اتّجاه وحدوي تحرّري عربي مهما كان لونه، تماماً كما أدرك الغرب في مرحلة سابقة أنّ إسقاط الدولة العثمانية ووراثة أراضيها يستدعي إثارة النعرات القومية بين الأتراك وغيرهم من المسلمين في العالم. لهذا تميّزت الطروحات الثقافية لمطلع القرن العشرين بألوان قومية أولاً (في تركيا وفي البلاد العربية) مدعومة من الغرب، ثمّ جرى الفرز الغربي في ما بعد بين تعزيز للطرح القومي التركي، وبين محاربة للطرح القومي العربي بعد أن استتبّ الأمر لبريطانيا وفرنسا في المنطقة، وأقيمت الحدود والحواجز بين أبناء الأرض العربية الواحدة.

وفي المرحلتين، استهدفت أيضاً الهُويّة الحضارية والثقافية للأمّة العربية لأنّها تعارضت مع المشروع الغربي الاستعماري بوجهيه (هدم الدولة العثمانية أولاً، ثمّ بناء الكيانات العربية الإقليمية والسيطرة عليها بشكل لا يسمح بوحدتها في المستقبل).

لكنّ من الضروري الإشارة إلى مسألتين تجنّباً للتعميم في ما سبق ذكره.

المسألة الأولى: أنّ الإعلام العربي في مطلع القرن العشرين (وهو هنا إعلام الصحافة) لم يكن كلّه تغريبياً، بل ظهرت مطبوعات عربية كان لها الأثر البالغ في إحياء حركة الإصلاح الديني والدعوة للنهضة الحضارية العربية («العروة الوثقى»، و«المنار»).

المسألة الثانية: أنّ الكثير من الأدباء والكتّاب المسيحيين العرب قد لعبوا دوراً هامّاً في الحفاظ على اللغة العربية وتنقيتها وتخليصها من الشوائب التي لحقت بها في عصور الانحطاط، وكذلك في إعداد مجموعات كبيرة من كتب قواعد اللغة العربية (البستاني، اليازجي)، وكان لهم الفضل أيضاً في استيراد المطابع وتسهيل عمليات النشر والطباعة وتكوين النواة التقنية لمؤسسات إعلامية عربية كبيرة.

***

في النصف الثاني من القرن العشرين، وبعد استقلال الدول العربية عن الانتداب الأجنبي، تميّز الإعلام العربي عموماً بإخضاعه للرقابة الحكومية. وكان لبنان، في تلك الفترة، استثناءً إلى حدٍّ ما على صعيد الحريات الإعلامية خاصّةً في مجال الصحافة. ويمكن القول إنّ حصيلة التجربتين الإعلاميتين في المنطقة العربية (أيّ الانفتاح الكامل في لبنان والانغلاق الكامل في غيره بشكل عام) لم تساعد في صيانة وحدة المجتمعات العربية أو تذويب الانقسامات داخل البلد الواحد.

إنّ الاستثناء اللبناني في مجال الحريات الإعلامية العربية، خلال عقود ما بعد مرحلة الاستقلال، لم يمنع مثلاً من تفجّر الأزمات السياسية والأمنية داخل هذا البلد، بل على العكس، فالصحافة في لبنان تحوّلت في تلك الفترة إلى سلع تُباع وتُشترى من أطراف عربية ودولية لتكون منابر إعلامية تخدم هذه الجهات في صراعاتها ومشاريعها بالمنطقة العربية.

فللأسف تظهر في مراحل مختلفة أصواتٌ وأقلامٌ عربية تكون هي أيضاً عنصراً مساهماً في إشاعة مناخ الانقسام الطائفي والمذهبي بين أبناء الأمّة العربية، حيث تكرّر تصنيفات وتسميات كانت في الماضي من الأدبيات «الإسرائيلية» فقط، فإذا بها الآن تتقدّم التحليلات السياسية لبعض الأقلام العربية، وأصحابها يتنافسون على الفضائيات وعلى صفحات الجرائد فيما يؤدّي إلى مزيدٍ من عوامل الانقسام والانحطاط في أحوال الأوطان والمواطنين!.

ولقد تحوّل الإعلام العالمي في السنوات الأخيرة إلى صناعة قائمة بذاتها، بل إلى مؤسسات تجارية كبرى مثلها مثل باقي الشركات والمؤسسات المالية التي تتحكّم في كثير من اقتصاديات العالم.

وتكفي الإشارة إلى أمثلة محدّدة حتى ندرك خطورة ما يحدث على صعيد الإعلام وانعكاسه على بلادنا العربية وقضاياها المتعدّدة. فروبرت موردوخ، مثلاً، وهو من أصل أوسترالي ومعروف بتأييده الكبير لإسرائيل، يملك امبراطورية إعلامية كبيرة تشمل الولايات المتحدة وبريطانيا وأوستراليا وأكثر من خمسين بلداً في العالم. وتضمّ إمبراطوريته، عدّة صحف ومجلات ودور نشر وشبكات تلفزيونية وشركات سينمائية معروفة عالمياً، كشركة فوكس (Fox) للقرن العشرين، وخدمات على الكمبيوتر للمعلومات.

مثال آخر، شركة جنرال إلكتريك في أميركا، وهي نفسها مالكة لشبكة NBC ولعدد آخر من وسائل الإعلام الإذاعية، أمّا شركة «والت ديزني» فقد حازت منذ أكثر من عقد من الزمن تقريباً على ملكية شبكة ABC الإخبارية المشهورة في أميركا...

طبعاً هذه الشركات لها مصالح وسياسات خاصّة داخل أميركا وخارجها، وهي تلعب دوراً كبيراً في صنع السياسة الأميركية وفي ترشيح العديد من الأشخاص للمناصب الحسّاسة في الولايات المتحدة. لذلك من المهمّ التساؤل عمّا يخدمه الإعلام وليس فقط عن من يملكه.

هو الآن، في عموم العالم، عصر التضليل السياسي والإعلامي. فالتقدّم التقني، في وسائل الاتصالات والشبكات العنكبوتية وإعلام الفضائيات، اخترق كلّ الحواجز بين دول العالم وشعوبها. وأصبح ممكناً إطلاق صورة كاذبة أو خبر مختلق، ونشره عبر هذه الوسائل، لكي يُصبح عند مَلايين من الناس حقيقة. هو أيضاً، كما كان في القرن العشرين، عصر «المال والإعلام»، ومن يملكهما يملك قدرة التأثير على صنع القرارات السياسية. هكذا فعل «اللوبي الإسرائيلي» في الغرب عموماً، وفي أميركا خصوصاً، من حيث تركيزه على المؤسسات المالية والإعلامية في الغرب.

لذلك، من المهمّ أن يُعنى الآن المفكّرون والمثقّفون والإعلاميون العرب بحجم مسؤولياتهم في صنع الرأي العام العربي وبالتفكير في كيفيّة الوصول إلى مستقبل عربي أفضل، لا الاكتفاء بالتحليل السياسي للواقع الراهن فقط... فالملاحظ هذه الأيام في وسائل الإعلام العربية هيمنة التحليل السياسي لحاضر الأمّة، وأيضاً كثرة عدد «السلفيين» القابعين في ماضي هذه الأمّة، لكن عدد العرب، المُعدّين والساعين لمستقبلٍ أفضل لأوطانهم ولأمّتهم، يتضاءل يوماً بعد يوم...

*مدير «مركز الحوار العربي» في واشنطن
sobhi@alhewar.com